هنيدة غانم

رواية "متساوون ومتساوون أكثر" لسامي ميخائيل

عنوان الرواية: "متساوون ومتساوون أكثر"

الكاتب: سامي ميخائيل

سنة النشر: ١٩٧٤

عدد الصفحات: ٢٥٤

صدرت الطبعة الأولى عن دار بستان للنشر

"متساوون ومتساوون أكثر" هي باكورة أعمال الروائي الإسرائيلي العراقي سامي ميخائيل، ومن طلائع الأدب الشرقي الذي يعالج قضية اليهود الشرقيين (العرب) والتمييز الذي عانوا منه في إسرائيل وخاصة في العقدين الأولين من إقامتها.

تدور أحداث الرواية حول تحولات حياة أسرة عراقية هاجرت من العراق إلى إسرائيل ضمن أفواج الهجرة الضخمة التي وصلت

إليها بين السنوات ١٩٤٨–١٩٥٢ من الدول العربية والإسلامية ومن أوروبا والتي ضمت أكثر من ٧٠٠ ألف مهاجر.

وتشكل الحياة في "مخيم المهاجرين خيرية" المقام على أنقاض القرية العربية المدمرة خيرية والمسماة بالعبرية "معبرات خيرية"، الخلفية المكانية للرواية، حيث يصف الكاتب بالتفصيل الشروط الحياتية المتردية والذل والمهانة التي خبرها الشرقيون في "المعبروت"، وعلاقات القوة التي سادت بين الأشكنازيين الذين أسسوا فعليا الدولة وبين الشرقيين الذين هاجروا إليها. والملفت أن الكاتب يسرد الظلم والغضب الشرقيين من دون أي ذكر لخيرية العربيةّ التي أقيمت "المعبراه" على أنقاضها في مشهد سريالي يختصر عمليا تركيبة المشروع الاستعماري الصهيوني في فلسطين.

والمعبروت هي عبارة عن مخيمات سكن مؤقتة أقيمت خصيصا لاستيعاب أفواج المهاجرين في إسرائيل في سنوات الخمسين، وتعود فكرة إقامة المعبروت إلى ليفي أشكول (ثاني رئيس حكومة في إسرائيل) حين كان رئيسا للقسم الاستيطاني في الوكالة اليهودية، من أجل توفير احتياجات المهاجرين للسكن حتى يتمكنوا من الانتقال إلى بيوت ثابتة. وعلى خلاف مخيمات المهاجرين الأولى التي سبقتها والتي وفرت فيها الوكالة اليهودية المبيت والمأكل للمهاجرين، فإن المهاجرين في المعبروت طولبوا بإعالة أنفسهم بقواهم الذاتية في ظل انعدام فرص عمل ملائمة وشح الموارد، مما خلق حالات فقر وفاقة مدقعة بينهم وأسهم لاحقا في تثبيت التراتبية الطائفية في إسرائيل وفي توسيع الفجوات الحياتية بين الشرقيين والأشكناز.

معبرات خيرية (مخيم خيرية)

وجاء في الخبر الذي أوردته صحيفة دافار في ٢٣ أيار ١٩٥٠ عن أول معبراه ما يلي:

"في الأسبوع الماضي أقيمت في جبال القدس أول معبراه في البلاد. المعبراه هي "مستوطنة" (ييشوف) مؤقتة، حيث يقوم سكانها الخارجون من مخيمات المهاجرين بالعمل في التشجير، ويسكنون مع عائلاتهم".

وقد تم استيعاب ما يقارب ٢٢٠ ألف نسمة في المعبروت خلال أول عامين من إقامتها. وقد تمخض عن طريقة الاستيعاب هذه أنه تم الزج فعليا بكل المثقفين والمتعلمين وأبناء الطبقة الوسطى من الشرقيين في أعمال يدوية بعيدة عن مجالات تخصصهم، وهو ما شكل صدمة لبعضهم ممن لم يهاجروا لأسباب صهيونية بل بسبب عوامل طاردة أخرى في الدول التي قدموا منها كما حدث مع العراقيين.

عنوان الرواية "متساوون ومتساوون أكثر" مأخوذ من المقولة المشهورة التي أوردها جورج أورويل في كتابه "مزرعة الحيوانات" والتي جاء فيها: "كل الحيوانات متساوية، لكن توجد حيوانات متساوية أكثر".

وقد حازت الرواية لدى صدورها في سنة ١٩٧٤ على اهتمام كبير وأثارت نقاشات متعددة حول تجربة الشرقيين والتمييز الذي عانوا منه، ويمكن من خلال الرواية استشفاف حدة الغضب الذي أدى إلى إنهاء حكم حزب العمل وصعود الليكود سنة ١٩٧٧ .

اعتبرت العديد من القراءات رواية ميخائيل هذه "صرخة" غضب، وجاء في جريدة دافار عن الرواية في آب ١٩٧٤ : "هذه رواية جاءت لتستصرخ وتهز الرأي العام فيما يخص التمييز الطائفي".

***

أحداث الرواية:

تبدأ الرواية في ٢ حزيران ١٩٦٧ الساعة التاسعة صباحا، حيث يجلس دافيد بطل القصة في مجنزرة مع أربعة محاربين، اثنان أشكناز أحدهما قائدهم، ويمني وشرقي "مدجن"، وهم في الطريق إلى الجبهة المصرية للمشاركة في الحرب. دافيد يحرك إبرة الراديو ويتنقل بين المحطات العربية التي تهيج للمواجهة، فتنطلق أصوات موسيقى عربية، الأمر الذي يثير الغضب بين المجموعة ويطالب دافيد بإخراس الراديو، فيتطور جدال في داخل المجموعة، لكن دافيد المليء بمشاعر الغضب كما يتضح، يستمر في إثارة الجدل واستفزاز الجنود، ولا يمل من دور مثير الحنق.

ينطلق دافيد في استذكار حكايته على خلفية الحرب التي استدعي للمشاركة فيها من جهة، وعلى خلفية التوتر الذي حدث في داخل المجنزرة من جهة أخرى، حيث تبدأ تدريجيا تتكشف للقارئ حالة الغضب التي تتمخض في داخله على ضوء تجربته كيهودي شرقي في إسرائيل ومأساته العائلية المرتبطة بالهجرة من العراق إلى إسرائيل مرورا بالحياة في "معبرات خيرية".

يخبرنا دافيد أولا أنه أصبح مطلقا وأن زوجته الآن مع شخص تنتهي كنية عائلته بـ"تس" في إشارة إلى أصوله الأشكنازية، ثم يبدأ باستذكار أبيه الأعمى وأمه ومصائر باقي أفراد عائلته، حيث يأخذنا عبر مصائر أفراد العائلة في رحلة إلى أكثر الزوايا ظلمة في حياة الشرقيين في المعبروت.

***

خرجت عائلة دافيد من بغداد التي لم تعرف غيرها مدنا في اتجاه إسرائيل تحدوها مشاعر مختلطة يغلب عليها الانفعال، وجلس الأب والأم في الطائرة مع ابنتين وابنين وهم يلبسون أفضل ما لديهم من ثياب من القطن الانجليزي والحرير الصافي، وكان ابنهم البكر شاؤول قد سبقهم إلى إسرائيل وانضم إلى صفوف الجيش. الشوق إلى الابن كان كبيرا، وكان بإمكان الأب بعد إقلاع الطائرة أن يكشف لأول مرة وبفخر سره لباقي المهاجرين العراقيين بأن ابنه سبقه إلى إسرائيل. خلف دافيد في الطائرة جلست مادلين، الصبية السمراء الجميلة التي أثارته، وكان معهم أيضا رؤوبين وهو مدير سابق لمحطة قطار الموصل، وزوجته الشابة نعيمة. ودارت الأحاديث في الطائرة عن شكل الوطن الجديد وعن الحياة وعن التوقعات.

تبدأ الخيبات مباشرة مع هبوط الطائرة، فالابن البكر شاؤول لم يكن في انتظار العائلة، ولم يتم استقبال المهاجرين بشكل احتفائي كما توقع بعضهم، وبدلا من ذلك "ظهرت أمامنا مجموعة رمادية من الموظفين.. أبي وقف للحظة في الطائرة.. عرفنا أنه يخفي إحباطه.. كان هذا مجهودا عظيما بلا أمل. خلال خمس دقائق قصيرة نجح الوطن الجديد في تحويل أبي من رجل نشط في قمة عطائه إلى كسرة– شيء عجوز ومهان. وفيما كنا ما نزال نهبط أدراج الطائرة، ونحن متحمسون ومنفعلون للمس سحر– إسرائيل الذي حلمناه، انطلق من بين المجموعة الرمادية التي جاءت باتجاهنا شخص يحمل في يده جهاز رش كبيرا. وقبل أن نستوعب الذي يحدث غطتنا غيمة دي دي تي صبغت أبا شاؤول بالأبيض، وهو في السابق مواطن محترم ووجيه في بغداد".

بعد هذا الاستقبال الصادم يدخل أبو شاؤول والد دافيد في مسار من التردي النفسي، ويتحول تدريجيا من رجل مهيب ومحترم، إلى شخص مقيت، جائع كل الوقت، عاطل عن العمل في أغلب الوقت، ويفقد بصره تدريجيا، فيما تحاول الأم الحزينة الاستمرار في القيام بمهامها من تنظيف وتوفير مأكل وهي تعطي الأعذار لزوجها وتفهم حالة الانحدار التي دخل فيها.

تنقل العائلة بعد يوم من وصولها إلى إسرائيل إلى العيش في "كوخ"– في معبرات خيرية، ويلتقي أفرادها بابنهم شاؤول في محطة القطار التي ستنقلهم للمعبراه.

يحكي الأب لابنه الجندي عن الاستقبال المهين الذي حظوا به، ويضيف "أنت تعرف أنهم ضايقونا في العراق لكننا لم نكن أقل منهم! هنا لا يلاحقون اليهود، الحمد لله. لكننا وقبل أن نأتي حددوا لنا مكانة أخرى، مكانة من نوع ثان..". يوافق شاؤول أباه على ما يقوله ويضيف أن الأمر مؤلم.

وعن التمييز والاختلاف بحسب الانتماء يكتب "اليد المخفية التي شعر بها أبي من اليوم الأول، القوة المراوغة وغير المعرفة التي فصلت بين المتساوين والمتساوين أكثر، هذه اليد عادت وظهرت حين وقفنا متوترين أمام الكوخ الأخضر لدائرة التشغيل في المعبراه. القادمون الجدد من بولندا وهنغاريا تجمهروا في انتظار منضبط بعيدين ومميزين بشكل ما عن الآخرين، سمر البشرة".

تبدأ المعاناة الحياتية مباشرة إذن مع الهبوط من الطائرة لكنها تتحول إلى طبيعة حياتية متشرية في تجربة الشرقي في المعبراه، حيث أغلبية السكان شرقية، وحيث ينجح عادة الأشكناز في الخروج من حدودها والانتقال إلى بيوت دائمة في المدن بشكل سريع.

تتردى الأوضاع الحياتية بشكل خاص في الطقس البارد أو الحار، فالوحل يحيط بالأكواخ ويصعب الانتقال ويلتصق بالسكان، والبرد قارص في الشتاء، وفي الصيف تتكاثر الحشرات والذباب الأزرق. ومحاولات الأم أن تحافظ على نظافة المكان لا تفيدها كثيرا. والفاقة تؤدي بالعائلة إلى الموافقة على إرسال ابنها الأصغر زئيف للكيبوتس، حيث يصبح فردا فيه، ويعود إلى زيارة العائلة في الأعياد أو نهايات الأسبوع وفق الإمكانيات.

ووسط حالة الانحدار هذه وفي أحد أيام الشتاء القارص يعود دافيد إلى المعبراه ليجد جمهرة غريبة وضجة، يقترب من الجمهرة ليعرف أن النار اشتعلت في بيت أهله وأن أمه وأباه وأخته الصغيرة لقوا مصرعهم حرقا. الصدمة من الموت حرقا وصعوبة التأقلم مع الحياة وإيجاد لقمة العيش لسد الجوع، تترك أثرها الشديد على شاؤول ودافيد.

يقرر شاؤول البكر أن يبذل كل ما يمكنه من طاقة من أجل إنهاء دراسته الجامعية، هذه هي فرصته الوحيدة للخروج من المعبراه، وهذا ما يحدث فعليا، حيث يصبح لاحقا من أوائل الشرقيين المحامين في إسرائيل، ويتحول إلى قصة نجاح معروفة. ويتعرّف شاؤول على نعيمة زوجة رؤوبين ويدخل معها في قصة حب غير شرعية تنتهي بأن تلد له طفلين.

يتبنى دافيد أيضا موقف شاؤول بأن فرصته الوحيدة هي التعليم وبالفعل يمضي أوقاتا طويلة في مجهوده الدراسي والتعليمي، لكنه لا ينهي تعليمه الجامعي بسبب تطورات حياته، إذ أنه خلال مكوثه في المعبراه يتعرف على مرغليت ابنة تسيبورا موظفة الصحة الأشكنازية، ويقع في حبها، وتبدأ مواجهته القاسية مع الأم التي ترفضه بشدة وتنعته بأصعب الصفات التحقيرية بسبب كونه شرقيا. دافيد ومرغليت يتمسكان بعلاقتهما رغم محاولات الام المستميتة للتفريق بينهما ويتزوجان

ويرزقان بطفل، لكن الأم تستمر في التخريب والدسائس من خلال استخدام علاقاتها لعدم قبول دافيد للعمل في البنك وتصعيب حياته، وبسبب الحاجة ينتقل دافيد ومرغليت للعيش في شقتها التي اشترتها لكن التوتر يتزايد حتى تنفجر الأمور وتنهار العلاقة تدريجيا مع مرغليت وتنتهي بالطلاق وبزواج مرغليت من شاب أشكنازي أرمل يعمل معها في البنك.

ومن قصص الرواية التي تتطرق إلى تدهور حياة الشرقيين، قصة الفتاة مادلين التي جاءت في نفس الطائرة مع عائلة دافيد من بغداد إلى إسرائيل، وتكون أول فتاة يتعرف عليها دافيد ويمارس معها الحب، لكنها تنحدر تدريجيا نحو العمل في الزنا، وفي أول مرة تعمل كزانية يرافقها دافيد بطلب وإصرار منها، لكنه يشعر بالغضب مما فعل، ويرفض اقتسام المال بدل عمله معها، ويتوقف عن مرافقتها، فتنتقل للعمل تحت رعاية "أبو حلاوة" وهو شخصية ساقطة معروفة في المخيم يأخذ الخاوة والزعرنة، وحين تقرر التوقف عن عملها هذا يهددها "أبو حلاوة" بالقتل، فتستغيث بدافيد وشاؤول حيث يطالبه شاؤول بالابتعاد عنها وعدم التعرض لها وتتطور بينهم مشادة كلامية تنتهي بالتعارك الجسدي وإصابة شاؤول بكدمات في وجهه. لكن تدخل شاؤول ودافيد لحماية مادلين لا يؤدي إلى إبعاد "أبو حلاوة" عنها بل إلى قتلها ذبحا بعد رفضها الانصياع لأوامره.

بالإضافة لمادلين يسرد الراوي قصة نعيمة وعلاقتها غير الشرعية لكن المحبة مع شاؤول، ويحكي عن تسللها ليلا إليه في المعبراه، وعن مساهمتها في تجهيز المأكل للعائلة في أكثر من مناسبة، كما يحكي عن زوجها رؤوبين الذي استطاع من خلال الانضمام إلى الحزب الحاكم التدرج عاليا في المناصب حتى أصبح عضو كنيست بعد أن تم تدجينه كشرقي مقبول.

**

تتشابك قصص الرواية حول معاناة الشرقيين مع قصة "حرب الأيام الستة".

تصاب المجنزرة التي فيها دافيد ورفاقه بقذيفة من الجيش المصري، حيث يصاب قائد المجنزرة الأشكنازي بجروح بليغة تشله عن الحركة ويلقى جنديان آخران مصرعهما. ودافيد الذي يصاب بجروح أيضا يقوم بإنقاذ قائده من موت محتم وسحب الجثث قبل احتراق المجنزرة النهائي. بعد هذا الإنقاذ يقوم دافيد بخلع ملابسه كي لا تتعرف عليه القوة المصرية، وحين يجده الجيش الإسرائيلي يظنه عربيا بسبب لونه، فيكيل أفراده له الإهانة إلى أن يقوم بالحديث بالعبرية، حيث يتم التعرف عليه كجندي إسرائيلي.

يدل دافيد الجيش على باقي الجنود، ويتم إنقاذهم، وهو ما يؤدي إلى منحه نيشان بطولة الحرب.

تكون هذه البطولة بمثابة إقرار رمزي بدوره في الدولة فيعطيها لابنه باعتبارها اعترافا به، وهو ما يعني فعليا التعامل مع الجيش بمثابة فرن الصهر الحقيقي للدولة الذي سمح للشرقي أن يدمج نفسه في الدولة.

بذا تكون خلاصة الرواية فعليا أن الجيش هو مكان المساواة الممكن للشرقي، وأن الشرقي يمكنه أن يُدمج في المؤسسة عبر بوابة القوة الأكبر والأهم للدولة!

ثلاث ملاحظات على هامش الرواية

- أولا، الفلسطيني يحضر مرتين في الرواية: الأولى على شكل زبون منحرف جنسيا يأتي إلى مادلين الزانية. والثانية على شكل رجل يائس يعاني من الانفصال عن زوجته على شاطئ تل أبيب حيث يقوم بإنقاذ دافيد من الانتحار بسبب تدهور علاقته مع زوجته.
- ثانيا، معبرات خيرية أقيمت على أنقاض قرية خيرية الفلسطينية التي دمرت وطرد سكانها عام ١٩٤٨. وقد امتدت مساحتها على ١٣٦٧٢ دونما، وسكنها عام ١٩٤٥ بحسب التعداد الذي أجرته سلطات الانتداب أكثر من ١٤٠٠ نسمة، وفي مسافة ليست بعيدة من المعبراه تم تحويل قسم من أراضي قرية خيرية إلى مكب نفايات لمنطقة تل ابيب عام ١٩٥٢. هذه القرية العربية لا تذكر في الرواية إطلاقا.
- ثالثا، ظل الاسم خيرية واحدا من الأسماء العربية القليلة المتداولة بعد النكبة بسبب المزبلة التي سميت مزبلة خيرية وشكلت مكبا لثلاث عشرة مدينة وسلطة محلية بالإضافة إلى المستشفيات والقواعد العسكرية في منطقة الوسط.

الخلاصة

بنيت معبرات خيرية الشرقية البائسة على أنقاض قرية خيرية الفلسطينية المهدمة. تم تفكيك المعبراه عام ١٩٧٢ وتم إغلاق المزبلة عام ١٩٩٨. وعلى الأنقاض تقرّر إقامة متنزه مفتوح ومنطقة لتدوير النفايات وسمي المتنزه بمتنزه أريئيل شارون (الأشكنازي)!